الفاصل العميق:
بين جيلنا وجيل الرواد

محيي الدين محمد

يقفز الجيل الجديد دفعة واحدة الى مكان القيادة بعد وفاة العقاد ، وتوقف طه حسين النهائي عن الانتاج . فهل هو واعٍ بما في القفزة من مقدرات ومسؤوليات ؟ وهل هو جيل قيادي حقاً كما كان الجيل السابق جيلاً رائداً ؟ هل في يديه من القدرة والوعي والادراك ما يحمله تبعات الأزمة الفكرية في وطننا ؟ هل هو جيل الشهادة ام جيل الحركة والفعل؟

لم يعد هناك مفكر واحد يستطيع ان يكون بمعزل عن منجزات امته السياسية والاقتصادية والنفسية. بل لم يكن هناك مفكر واحد الا وتربطه بهذه المنجزات اكثر من صلة وسبب ، حتى اذا وضعنا في اعتبارنا اعمال الكاتب التشيكي العظيم فرانز كافكا ، وهو في اعتقادي المثال النقيض . فالمفكر هو — دوماً — صوت الواقع ، وصوت التطلعات ؛ الواقع مصدر الدراسة والعمل ، والتطلع مجال التأمل والمنى . من ثم ، نجد ان المفكرين الواقعيين يبطنون الحلم والتمنى ، وان المفكرين الحالمين يبطنون التجربة والواقع ، الأن المبادرتين في الحقيقة ليستا الا مبادرة واحدة لها جانبان متشابكان ومعقدان ومتطرفان . فاذا اصبح مفكر ما صوتاً لطبقته — بدون ان يدري — فهو صوت تلقائي ايضاً لتطلعات هذه الطبقة وآمالها . الا ان يكون المفكر ميتافيزيقياً ، لأنه في هذه الحالة باحث عن وضعية انسانية لها مجال آخر غير مجال التطور البشري والهموم الأرضية . والحق ، من الصعب ان يقسم الدارس طبقات المفكرين الى ميتافيزيقيين وواقعين ، لان من الصواب هنا ايضاً ان نمزج الميتافيزيقيا بالواقع على اعتبار ان المجرد ليس سوى الواقع مصبوباً في مساحات لا نهاية لها ، ولا يشكل ابداً موضوعة مختلفة عنه .

المفكر اذاً هو صوت امته وطبقته ، واحلام امته وطبقته ايضاً . فهل كان العقاد صوت « ذوي البنيقات البيضاء » كما سميت البورجوازية مرة ، ام كان صوت « ذوي الجلابيب الزرقاء» كما سمي الفلاحون ؟ (لم يكن للاقطاع صوت مباشر ، لأننا في الشرق العربي ، نملك جهازاً ومؤسسة كاملة تعطي للطبقة الاقطاعية الحاكمة حق الحكم وحق الدوس على اعناق الطبقات والفئات الاخرى) .

والحق ان ذلك سؤال شائك ، بني على فرضية بدهية . لان تقلب العقاد السياسي

والفكري بين حزبين من الاحزاب السياسيه يمثلان اشد وجوه مصر الطبقية تعارضاً ، يدعونا الى الكف عن استخدام هذا المنطق الذي يكاد يعم المفكرين والكتاب الآخرين . اذ عندما يتحول مفكر كسارتر الى اقصى اليسار ، لا يعد ذلك تخلياً عن موقفه السابق ، انما هو تطور كامن في بنية موقفه السابق ، ولا يمكن بحال اعتباره اختلافاً او تجاوزاً او انتكاساً ؛ فالموقف الوجودي دعوة مفتوحة للانصباب والتشكل على اساس من وعي الحاضر العميق. هذا الوعي وحده الذي يمنع الملتزم من اتخاذ موقف رجعي وضد الانسان. فاذا استخدمنا منطقنا ، في ان المفكر هو صوت الطبقة والامة الواعي ، استحال علينا ان نسمي نكسة العقاد وتحوله من اقصى يسار حزب الوفد الذي حمل رسالة الشعب المصري وطالب بالاستقلال وناجز الانكليز العداء ، رغم انه كان يمثل الاقطاع المصري تمثيلاً كاملاً ، استحال علينا ان نمنطق نكسته وتحوله من خدمة هذا الحزب « التقدمي » الى خدمة الحزب السعدي الذي يمثل اقصى مطالب السراي ومطالب القيادة الانكليزية . فهل كان ذلك موقفاً واعياً يدعو اليه التزامه ؟ وهل كان صوت « عبقته » منسجماً مع هذا « الرنين » الرجعي ؟ ذكر بعض الدارسين ان تحول العقاد من حزب تقدمي الى آخر رجعي له ليس سببه الا الخلاف العميق بين افكاره المتطورة ، وافكار الحزب الاول الجامدة ! ولكن هل وجد العقاد انسجاماً بين افكاره المتطورة وافكار الحزب الرجعي الذي ضرب الشعب وحطمه ، ولم يجد مثل هذا الانسجام في حزب الوفد الذي كان يمثل التطلع الشعبي . اخشى ان يكون ذلك الجواب متعارضاً مع المنطق السليم . ولو تطور العقاد من الحزب السعدي الى حزب الوفد لأصبحت القضية واضحة ، ولأصبح الجواب يسيراً . فالعقاد هو المفكر الحر الذي قاوم الطغيان ونادى بتحطيم الدكتاتورية ، وطالب بحكم الشعب ، وسجن وبطش به ، وكادت له السلطات ونكلت به تنكيلا. واذاً فما الذي حدى به الى ان يقف موقفاً معكوساً من مثله وقضيته الكبرى التي كان صوتاً مسؤولاً عنها طيلة انتمائه لحزب الوفد الشعبي ؟

اذا تفحصنا الامر اكثر، وجدنا ان شذوذ العقاد عن القاعدة التي وضعها التاريخ والتي تفسر وضعية المفكرين بهديها ويوضعون على اساسها في اماكنهم من طبقاتهم ، يمنع ان يكون الخلاف النظري بينه وبين الوفد دافعاً لنكسته ، ويحتم من جهة اخرى ان تكون الاسباب ذاتية وفردية .

وسبب ايماننا بذلك ، هو ان العقاد عندما تحول من اقصى اليسار الى اقصى اليمين ، لم يتحول فيه سوى الجانب السياسي . اما الجانب الفكري فقد ظل يسارياً وعلى شفا الخلاف الدائم بينه وبين اقطاب الحزب السعدي من ممثلي الاقطاع الخادم للملك والاحتلال الانكليزي . فلو ان تحول العقاد كان كاملاً ، اي لو بنى إيثاره لليمين على اقتناع نظري وخلقي ، لوضح ذلك في كناباته السابقة على تحوله . فالمفكر لا يتحول خطوة واحدة الا وتشي بها افكاره التلقائية او المدروسة ، فما بالنا والتحول خطير وواسع المدى ؟

لقد اصبح العقاد اذاً يميني المشارب السياسية ، في حين ظل يساري العقيدة والمثل . وضع يده في يد الحاكم الذي يحمل السوط ويفتح الجسور على الطلبة المتظاهرين فيغرقهم ويضربهم بالرصاص لأنهم طالبوا بجلاء المستعمر الانكليزي ، وبقي على ايمانه بالديمقراطية وايمانه بوجوب سحق الحكم الباطش والديماجوجي .

من الصعب ان ندرج روادنا العظام كطه حسين والمازني والعقاد وتوفيق الحكيم ضمن الكتاب الذين يحملون مسؤولية التعبير عن طبقتهم ، اذ لم تكن البورجوازية وقتئذ سوى « بنيقات بيضاء » : وهو تعبير مضلل أطلقه حاكم انكليزي آخر على البيروقراطية . فلم تكن البورجوازية ، وهي ابداً الطبقة المتطلعة الحالمة التي تكافح في سبيل السلطان ، ولا تني تضرب الاقطاع والرأسمالية في اعمق جذورهما ، لم تكن سوى طبقة لا تحمل من ميزات وضعها التطوري الا الاسم ، اذ لم تبعد بمصر الشقة كثيراً في وضعها الاقطاعي – الرأسمالي ، الى حد ان تتمركز طبقة وسطى خطيرة المطامح وقوية المخالب . من اجل ذلك أخطأ ذلك الحاكم المستعمر ، وخلط في تعبيره بين البورجوازية وجماعة الموظفين الحكوميين .

يضاف الى ذلك ان المرحلة الأدبية التي كانت تعيشها مصر في ذلك الحين لم تتطور عن رومانسية المنفلوطي والرافعي الغشيمة . تلك الرومانسية التي وقع عليها الشعب المصري ، فراراً من عقم حياته السياسية والفكرية ، وهرباً من الواقع المحزن المميت الذي لا طائل وراء البت في تغييره . ولا بد ان كلمة « ما فيش فايدة » التي عزاها البسطاء من الناس هنا الى الزعيم الوفدي سعد زغلول لها دلالة عميقة تفسر مدى تشاؤم الناس ومدى تحللهم من مسؤولياتهم في تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر . فالكفاح ضد المستعمر لا يجدي ، لأن خيانات الملك المتكررة وإيقاعه بالوطنيين يحطم الروح القومي ، ويثبت اقدام المحتلين ، ولأن طبقة الاقطاع المصرية تساند حكم الملك وبقاء القوات الانكليزية ، وتفرض على الشعب

حكومات لا تمثله ولا تعدّ صوتاً له . لكل ذلك انكب الجمهور على رومانسيات المنفلوطي ، وأفلت عن طريقها من مسؤوليات العصر والتاريخ والازمة .

فلما جاء الرواد ، ومنهم شبلي شميل وسلامة موسى ، وهما من اخطر من أثروا في الفكر المصري واخطر من غيروا مساره وطوروا افكاره وظلوا على نفس هذا الطريق حتى ماتوا ، لما جاء هؤلاء الرواد وجدوا الأرض خامة رخوة ووجدوا ان قراءاتهم الأوربية ، وتمثلهم للفكر الواقعي الغربي ، وادراكهم – الواعي واللاواعي – لوجوب التغيير ، يدفعهم دفعاً الى قلب هذه التربة وتعريضها للاشعاع الاوربي الساطع .

وبدأ الناس الذين عاشوا هجير الفكر العربي الجامد التقليدي ، يعرفون التطور وداروين ويعرفون الاشتراكية ، ويعرفون العدل في توزيع خيرات الأرض ، وبدأوا يشكون في ان الله يحض فعلاً على ان تحكم الناس طبقة واحدة من الحكام الظالمين الذين يكنزون عسل الأرض ، ويلقون بالشمع الى الملايين .

وانتهت الرومانسية المصرية باسرع مما قامت ، فالتشاؤم والحزن مرضان عرضيان في نفوس الناس ، اذ ما اسرع ما ارتبطوا بالتيارات الجديدة ، وما اسرع ما التفوا حول المجددين ، وما اكثر ما قرأوا «الايام» و « تربية سلامة موسى » و « ساعات بين الكتب » و « ابن الرومي » و « يوميات نائب في الارياف » . وهكذا تعرف الناس مرة اخرى الى الفكر الحر المسؤول الذي قام على وعي بالانسانية في شمولها ، ولم يقم على وعي طبقي محدد ومدروس . (لم تكن الاشتراكية وقتها ، وهي بحث في سحق الطبقات ، الا مفهوماً « فابياً » ساذجاً يستهدف الاصلاح . اما الثورة والتغيير الكلي والفعلي فلم يفكر به الرواد على انه امل جائز التحقيق في التو واللحظة) .

والعقاد ايضاً كان في افكاره وقيمه ومثله من جبل الانسانيين الذين لم يرتكزوا في الأرض على افق طبقي ، ولم يعبروا عن مطامح بورجوازية ، فظلوا ابداً على قيمهم الميتافيزيقية مهما تحولوا الى اليمين او بقوا في يسارهم الفكري .

وهكذا ظل يتابع هجومه ضد السراي وضد دكتاتورية الحاكم، مستظلاً بالحزب الذي يخدم السراي ، ويحكم الشعب بقبضة حديدية متعسفة ، منبئاً عن مثالية ذهنية لا يرقى الشك اليها .

وان سؤالاً ليعرض لنا داخل محاولتنا ان نطيح بفكرة انه كان معبراً عن احلام

طبقة معينة – مهما كان السبب في تحوله الخطير ، فكريا ام انتهازيا – : لقد كان العقاد وطه حسين في مثاليتهما الذهنية وريادتهما يمثلان جنوحاً شديداً الى التمسك بالفكر الصرف والقيم الأدبية المجردة (لا نجد داعياً لتكرار ما حاولنا الايماء اليه سابقاً من ان تمسك العقاد وطه حسين بالانتماء الى الاحزاب السياسية لم يكن الا تطلعاً تجريدياً لتطبيق افكارهما) ؛ وبالرغم من ذلك – بالرغم من تطور الحكم الطبقي في مصر ، والعدالة التي تأخذ مجراها ، ورغم مظاهر الديمقراطية السياسية والفكرية – نجد ان توقفهما قد خلق فراغاً خطيراً في حياتنا الادبية والفكرية. ولا يجب ان نستنتج من ذلك ان نشاطهما الادبي كان يمثل بالنسبة لنا « قيادة فكرية » ، اذ كانا حتى في اوج نشاطهما مجرد رائدين عظيمين في تاريخ حركتنا الادبية . اذاً فكيف يمثل انقطاعهما عن الكتابة فراغاً خطيراً؟

كان الرائدان يمثلان « انعطافاً » في تاريخ الفكر المصري ، ووقفة خطيرة اشبه بوقفة المنفلوطي تجاه نفسية الوطن ، وان تكن من حيث الاهمية اخطر واشد تعقيداً . وكان الجيل الجديد يعتبرهما « شاهداً حياً » على هذه الخطوة العكسية التي اثرا بها في مسار الامة من حيث القيم والافكار . صمد الاثنان لقضية الحرية ، وهي اخطر القضايا التي تمس الكتاب والمفكرين في الشرق العربي عامة ، ولم يتنازلا عن كلمة واحدة كتباها فيما يمس الدكتاتورية ونظام الحكم التعسفي ، ووقفا مع التطلعات الشعبية ، الى درجة ان طه حسين اقدم ، عندما تولى وزارة المعارف العمومية على اتخاذ خطوة يوتوبية ، عندما حقق مجانية التعليم للشعب .

واذاً ، تجتمع الريادة والبطولة وحسّ التطور الاوربي القادم من الغرب والكفاح ضد الدكتاتورية ، تجتمع كلها لتصنع من هذين الكتابين « امامة » جديدة للمفكرين والكتاب الجدد ، و « شهادة » جديدة على قسوة العنصر المفكر المتحرر وصلابته . وعلى ذلك ظل هذان « الامامان » في قمة تطلعات الشباب . لانه يجدهما ماثلين امامه بقيمها وافكارهما وووعيها كلما عرضت للاذهان قضية الحجر على الحرية، وهي آفة لا بد للمراقب ان يجدها اكثر الآفات ضرراً على الكاتب الجديد ، واشدها تأثيراً فيه .

والحق ان قضية الكاتب في العالم العربي ليست في الوقت الراهن سوى قضية الحجر على الحريات .

من اجل ذلك احس الجيل الجديد ان سنداً عظيماً قد ضاع من وراء ظهره ، وان

هناك خوفاً دائماً من السقوط الى الوراء ، الى الماضي، قبل مجيء الرواد . فالانتصار الذي حققه الرواد لم يثبت كقيمة بعد ، انما استمد قيمته من بقائهم احياء . (دليلنا على ذلك هو اننا الآن في عصر الاشتراكية وتطبيقها، ورغم ذلك لا يتذكر الا القليلون سلامة موسى وهو الرائد الاول الذي تكلم عن الاشتراكية) . فلما مات العقاد تعرضت قضية الحرية الى صدمة التصور العامي بان القضية تموت بموت المدافع عنها . وكان الجيل الجديد في موقف العامة عندما خشي ان يبدأ هو المعركة من حيث بدأ العقاد ، لا من حيث انتصر .

من جهة اخرى كانت الريادة تعليما وتثقيفاً للجيل الجديد الذي عاش فترة مع الرومانسيات المنفلوطية ، ثم تحول مرة واحدة الى ما اسميه الآن «فترة الادب العاكس» الذي تطلع الى الآداب الاوربية واحب ان يبتكر شبيهاً لها هنا . والحق ان الريادة فرضت على الجيل القديم شمولية المعرفة ، والتوسع في القراءات الاجنبية ، وفرضت على القائدين العظيمين مسالك ودروباً مختلفة ومتعارضة بينهما ؛ فالميدان فسيح يصح ان تصبح فيه الاختيارات الحرة غير المترابطة ، متعارضة او مختلفة . وعلى ذلك سيق العقاد سوقاً الى الادب الانكليزي ، في حين اضطر طه حسين تحت وطأة حسّ حاد بالاختلاف الى ان يندمج في الادب الفرنسي . واصبح الاثنان حجتين في الادبين الانكلوسكوني واللاتيني . ولا يستغرب الدارس ان يجد ان طه حسين هو الذي عرّف اوديب والكترا وعرّف كافكا وجيد الى المثقفين المصريين ، كما عرّفهم سلامة موسى وشبلي شميل افكار شو و ويب وبقية الاشتراكيين الفابيين في انكلترا .

ومن جهة ثانية، جمد الرواد عند حد حركتهم الاولى ولم يتطوروا بعدها، خاصة وان الوطن قد قذف بنفسه في تجربة نظرية جديدة لم يعشها ولم يعرفها عمره .

وقد وجد الجيل ان صمت الرواد ليس الا تخلفاً عن الوضع الجديد الذى اتخذته الحركة الثورية في مصر منطلقاً ، وتصوروا ان تخلف الرواد عن مثل هذه الحركة ، وهم على ما هم عليه من ثقافة واحاطة وشمول في المعارف، يضعهم هم دفعة واحدة في «مواجهة المدفع » ، وان عليهم هم عبء ان يأخذوا ازمة الفكر في ايديهم ، وهم على ما هم عليه من طراوة ورقة وبداية تكوين .

واصبحت الازمة في وعيهم هي : هل بامكانهم ان يتحملوا مسؤولية الوضع اذا اخفق الرواد في ذلك ؟ ان الفترة الحرجة التي مرت على مصر منذ ثورة ١٩٥٢ قد اسهمت بخلق جيل جديد من الكتاب نزعت من ايديهم المبادرة ، واصبحت احلامهم واحلام روادهم

العظام تطبق يوماً بعد يوم بدون ان يحتاج الامر الى قتلى وشهداء. (نتكلم هنا عن الناثرين ونقاد الادب بالذات اكثر ممـــا نتكلم عن الشعراء والروائيين والدرامائيين ، والحق ان لهؤلاء ظرفاً خاصاً يدعوهم الى الكتابة عن الفترة السابقة ووصفها بأبشع النعوت والاوصاف ، كما يتضح ذلك في اعمال سعد الدين وهبه ونعمان عاشور وفي بعض القصص والمسرحيـات الاخرى) .

وهكذا فغر الفاصل العميق جبه بين الجيل الجديد وجيل الرواد من جهة وبين الجيل الجديد والسلطات من جهة اخرى .

يرفض الجيل الجديد صمت الرواد ويتهمه بالتخلي عن المسؤولية . ويرفض من جهـة ثانية أخذ الدولة للمبادرة من بين يديه ، لأنه في هذه الحالة يصبح باحثاً في التفاصيل ، لا اكثر ولا أقل .

وقبل ان نستطرد في شرح جوانب الازمة لا بد لنـــا ان نوضح طبيعة هذا الجيل الجديد وان نبرز هويته. فبدون ذلك يصح وقوع الدارس في الاختلاط الذي يسببه تداخل الاجيال الادبية الثلاثة التي مرت على مصر منذ عام ١٩٣٥ ، وهي المرحلة التي يهمنـــا تأريخها على اساس انها واقعنا المعاصر .

فهل نسميه جديداً ، ذلك الجيل الذي سلخ نفسه عن الوضع السياسي والنفسي لمصر الاسيرة وأخذ يتكلم في جماليات لا علاقة لها بالناس او بظروفهم ؟ هل نسميه جديداً ، ذلك الجيل الذي تخلى عن ارتباطاته الوطنية والثقـــافية وفصل بين ما هو سياسي وما هو أدبي ؟

ان الجيل الذي بدأ يتكون قبل الثورة ويندفع في موجة اليسار ، ليس هو هو جيل اليسار الوفدي ، او اليسار الماركسي. انما هو جيل بدأ في الحقيقة بالبحث عن ذاته وسط العالم (ويعنينا ان نثبت ان هذا السبب بالذات هو الذي ابتعد به عن قبول الحلول الجاهزة من قيم اليسار المختلفة) وبالبحث عن قيمة له ، يصح ان تكون قطبـــاً هادياً لفترة من فترات الزمان . وهكذا تخلى الجيل – في بحثه المستمر – عن كافة الارتباطات السابقة ، وآثر ان يستمد هويته الواقعيـة اساساً بطريق الدراسة والصبر على الاحداث التي تتطور في وطنه ، اذ تناقضت الاحزاب والمنظمات الماركسية في وطنه ، بعضها يقف موقفـــاً واضحاً مع التيار الحاكم ، وبعضها الآخر يهاجمه ، وبعضها الثالث يدعو لمجرد التعاون معه

لأنه اكثر الشرور خيراً، وهكذا. اما التنظيمات اليمينية فقد اخذت موقف الهجوم السام الخافت ، واصبحت – في احتضارها – تترصد الاخطاء الصغيرة وتفحها سماً خبيثاً في الصدور . اما الجيل نفسه ، الجيل الضائع الذي رفض ان يكون « جهازاً » ، فقد آثر الصمت والصبر ، وآثر ان يبحث عن ذاته وسط هذه الدوامة من الانجذاب اليميني واليساري . (ولا بد ان حجر السلطة على الحريات كان احد الاسباب التي دعت هذا الجيل الى الصبر على الاحداث ، وعدم الانخراط صراحة في مصالحة الوضع) .

قلنا ان الرواد لم يكونوا – في جملتهم – تعبيراً عن فكر طبقة معينة ، بل كانوا تقويماً انسانياً عاماً يستهدف الاصلاح الاجتماعي والحرية السياسية والفكرية . ومن اجل ذلك فقط ماتوا شهداء : شبلي شميل وسلامة موسى والعقاد اخيراً . وقلنا بعد ذلك ان الجيل الضائع قد صبر على الاحداث وفي ذهنه استشهاد رواده ، وفي طموحه ان يمسك هو ايضاً بالرسالة وان يموت فداءها . ولكن ما اشد ما خاب أمله ! فقد بدأت الدولة الحديثة تنفذ وتحقق وتطبق كل احلام الجيل السابق : العدل ، الكفاية ، الشخصية الانسانية والكرامة ، التصنيع ، الحرية السياسية (بعيداً عن مناطق النفوذ الاستعمارية) ، الى آخره .

في البداية استمد الرواد شهادتهم من مناوءتهم للسلطة الجائرة ، ووقوفهم منها موقفاً مضاداً ، وكانت معارضة السلطات هي احدى القوى التي تخلق وتكوّن المفكر العصري. اما الآن فقد اصبحت معارضته انتكاساً على موقف الدولة التطوري ، بل اصبحت خيانة ورجعية ، لأن الدولة أضحت منفذة لكل خطى التقدم والتطور ؛ وبعبارة واحدة : اصبح الحكم نفسه يسارياً .

واذاً ، فقد وجد الجيل نفسه واقعاً في حلقة لا آخر لها . وكان عليه ان يعيد البحث عن ذاته ، بعد ان فقد معنى صراعه مع التخلف والجمود ، وبعد ان فقد – بوفاة الرواد – احد الاسباب الخطيرة التي تربطه بالقضايا الفكرية والسياسية التي دافعوا عنها .

وفي اللحظة نفسها كان جيل جديد يتكون ، اسهم هو الآخر بتعميق الفاصل . هوية هذا الجيل لا تعرف بسنه ، بل بتبنيه للقضايا التي يطرحها السلطان . وهو الجيل الذي ارتمى في حضن السلطان ، ووافق تمام الموافقة على كافة الانجازات والاعتبارات والقيم والمفاهيم التي طرحتها الثورة . وقد وجد هذا الجيل نفسه بسرعة ، فانتمى ، واطلق

العنـان لقواته المكبوتة ، ولم تعد هناك مشكلة بحث عن الذات بالنسبة له ، لأن الدولة تعطيه حق ان يتكلم عن قيمها ومنجزاتها ، ومن هنا وجد الجيل الضائع ويجد في كثير من اعمال الجيل المنتمي بعض البروباغندا السياسية والاجتماعية .

وفي هذه المرحلة بدأت الفلسفات الذاتية تزدهر بين الشباب، ووجد كثير من المثقفين شهادتهم في الاتجاه الوجودي ، والعدمي ، والسريالي ، والعبثي ، وكافة الاتجاهـات والفلسفات والتيارات التي تتفحص وجود الانسان بدءاً بالقضية الذاتية : من انا ؟ وماذا اصنع في هذا الكون ؟ وما هي غايته ؟ ولم تبرز هذه التيارات الا في بعض المجـلات الادبية البيروتية التي افسحت صدرها لهذا النمط الذاتي. فوجدنا يوسف الشاروني يكتب « دفاع منتصف الليل » و « الطريق الى المصح » ، وهمـا من احسن الامثلة على اندفاع الجيل بحثاً وراء القيم الذاتية ؛ ووجدنا الجيل قارئاً متمثلاً للمسرحيات العبثية التي يكتبها جيل العبث في فرنسا وانكلترا ؛ ووجدناه ميالاً الى فحص اعمال المؤلفين الغربيين الذين لا يمثلون الا الاتجاه الفردي . بل ان الشعراء انفسهم – وقد خاض الجيل كله هـذه المفازة – لم يجدوا سوى الانصياع ، فأخذوا يبحثون وينقبون في باطن اليوت وبودلير . وخير الامثلة التي يستطيع الدارس ان يخرج منها بنتيجة مؤكدة هي الابحاث والدراسات والمقالات التي سمحت مجلتا « الآداب » و « الاديب » بنشرها للكتاب الشبان بدءاً بعام ١٩٥٠ حتى الآن .

فكأن لجوء الجيل – واعياً او لا واعياً – الى التيارات الذاتيـة ، هرب من فتنة الانتماء الواضح للسلطـات (وهو امر – كما قلنا – كان يتطلب الصبر وانتظار النتـائج والدراسة) وهرب ايضاً من خطأ مقاومته السلطات ومناوءته لافضالها الجمة على الحيـاة الاقتصادية والاجتماعية . ومن اجل ذلك لم تكتمل فلسفة واحد من كتاب الجيل الشبان في التزامهم بالمخطط الذاتي ، ولم يعمق واحد منهم هذا الاتجاه ، ولم ينشئوا فيه امراً ذا خطر ، باستثناء قصتي يوسف الشاروني . بل ان النقاد الشبان الذين مالوا الى هـذه التيارات ، لم يثبتوا فيها بشكل يوحي بالتزامهم الكامل . وقد ترك الكثيرون منهم ما ظنه الدارسون افكاراً وجودية اصيلة ، ثم عادوا الى قلقهم الايديولوجي الدائم . ولو كان اللجوء الى القيم والنظريات امراً يدفع اليه نقصانها في وعي الشباب لكان التزامهم بهـا كاملاً غير منقوص . ولكن عودتهم ورجوعهم عن هذه القيم الذاتية يؤكد ان لجؤهم اليها

لم يكن الا رد فعل عميق لمبادرات السلطة والامساك بالمخططات التطورية والثورية .

ليس الجيل الشاب اذاً الا جيلاً شاهداً ، جيلاً لا يملك من مقدرات الريادة والقيادة الفكرية شيئاً ، جيلاً كل افضاله هي النظر والمشاهدة والصبر والدراسة . ولعل تنقله الدائم وعدم ثباته على القيم والافكار ، ينأى به عن ان يكون مماثلاً لجيل الثورة الروسية : هذا الجيل الذي فقد – في عهد ستالين – كل حرية وكل قدرة على التنفس والادراك ، لان الحاكم كان يطمع في مزيد من الانتماء ، ومزيد من الموافقة ، بالمزيد من الطغيان والدكتاتورية .

الشهادة تخلق من هذا الجيل رمزاً لطموحات قادمة ، كما خلقت الريادة للجيل السابق طموحاته . والشهادة ، بعد كل شيء ، ليست سوى خطوة واحدة في سبيل وعر ضيق يبدأ بملاحظة الذات والعالم – بمعزل عن القيم والنظريات – ثم ينتهي بالرفض الكامل أو الانتماء الكامل .

والشهادة تجعل من الجيل قوة يقظة ، تفيد من الانجازات العلمية والفكرية التي تطور الثورة بها وطننا، بل وتجعل منه عاملاً فعالاً في سحق بقية القوى التقليدية التي ما زالت – رغم نمو الروح العصرية – ساكنة في قلوب الناس كأعتى ماتكون القوى التقليدية والغيبية.

والشهادة ايضاً تمنع الجيل من الايمان بشيء او بقيمة ، الا بعد نقاش واقتناع كامل بها ، لانها ليست مجرد صقل داخلي تستطيع قيمة ما مهما بلغت من الانحطاط ان تلتصق بها . فالشهادة موقف ايضاً .

ومن اجل ذلك كله ، يقف الجيل الآن كأنه على اهبة الاستعداد لعمل مجهول ، كامن ، ما زال خفياً . ولعل الفاصل العميق ان يكون – في هذه الحالة – قليل الامد الى حد يكفينا التساؤل عن مدى القيمة التي افادها الجيل من عدم ارتضائه ومن رفضه ومن وقوفه موقف المتفرج ، لان الفاصل ليس تعبيراً عن مسافة زمنية او مسافة اخلاقية بين الجيلين : انه، كما قلنا، « شهادة » وموقف يدفع اليهما الوضع بمختلف قطاعاته، الذي يحسه الجيل المعاصر اعمق مما تحسه الاجيال الاخرى .